المبحث الخامس
جهاده ضد الصليبيين

أولاً: حال المسلمين والصليبيين قبل عماد الدين:

كان المسلمون في الشام متفرقين تكاد كل مدينة أن تكون دولة مستقلة وأقام الصليبيون في شمال سوريا تسعة شهور بعد فتح أنطاكية قبل سيرهم إلى بيت المقدس واستفادوا من هذه الفترة بالإغارة على المناطق الشمالية في سوريا وأقاموا النفوذ الصليبي محل النفوذ الإسلامي دون أن يحتكوا بالبيزنطيين، فأقاموا بذلك سداً في وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت في مهاجمة أنطاكية أو غيرها من الإمارات الصليبية في المستقبل كما جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية متيسراً لتستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور وتقدم الصليبيون نحو الجنوب فأسسوا مملكة بيت المقدس مستغلين ضعف الدولة الفاطمية، ودمشق عن حماية المنطقة والمدن الساحلية وبإنشاء إمارة طرابلس حدث توازن بين الصليبيين والمسلمين فأنطاكية تواجه حلب وطرابلس تواجه مدن وادي العاصي والرها تقع بين حلب والدولة الإسلامية في الشرق والغرب والقدس تقع بين دمشق ومصر ونقطة التوازن والسؤال المطروح: هل تنضم حلب إلى دمشق أو للموصل أو إلى الصليبيين[١]؟ لقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على سواحل سوريا وفلسطين وتعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة من القلاع الضخمة المبتدئة من ذغيرة في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك وبيت جبريل والدروم وكان خلف هذا الخط الأول توجد القلاع الممتدة من شقيق أرنون إلى صفد والقسطل وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة أنطاكية طرابلس وعكا وصور والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية البحر. ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبريا وامتازت هذه الحدود الصليبية أن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية [٢].

وأما خصائص الصليبيين الإستراتيجية الإسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة ففي الشمال حلب وحماة وإلى الشرق الموصل وقلاع الجزيرة ولكنها مدن حصينة، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب العربي والنوبة واليمن [٣]. وبدأ المسلمون في مقاومة الصليبيين منُذ اللحظات الأولى لقدومهم لكن كانت الكفة الراجحة للصليبيين فطمعوا في حلب ودمشق وفرضوا عليها الإتاوات ويصف الحال ابن الأثير[٤]: لما ملك المولى الشهيد البلاد كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١١٢.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٢.
(٣) صلاح الدين ص ٣١٠ قلعجي الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١١٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١١٣

أجنادهم وعظمت هيبتهم وامتدت إلى بلاد الشام أيديهم وضعف أهلها عن غارتهم وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسنجتان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة ويخاطرون بالقرب من القبائل العربية بأموالهم وأنفسهم ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصرانية وخيروهم المقام عند أربابهم أو العودة إلى أوطانهم والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم وناهيك بهذه الحالة للمسلمين ذلة وصغاراً وللكافرين قدرة واقتساراً... وأما حلب فإنهم ناصفوها أعمالها حتى الرحا على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة وأما باقي بلاد الشام فكانت حالها أشد من هذين البلدين [١].

ثانياً: سياسة عماد الدين زنكي مع الصليبيين:

أدّت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي، إذ دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام إثر وفاة واليها عز الدين مسعود بن البُرسُقي في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م ويبدو أن السلطان اقتنع بأنه الرجل الكفء الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه حكام الموصل من قبل، مما يؤكد حرصه على الاستفادة من قدراته لصد الخطر الصليبي الجاثم على حدود العراق الغربية [٢]. لم يمارس عماد الدين زنكي في بداية حكمه للموصل أي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يُثبِّت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزِّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحِّد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكِّنه من التصدي لهم ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد، أنه وقَّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرها لمدة سنتين أخذ أثناءها يوحِّد سلطانه في بلاد الشام [٣]، ولم تشر المصادر إلى شروطها، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمّت على ما اختاره عماد الدين زنكي ويبدو أن المشاكل التي جابهت صاحب الرها، اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم كان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضمِّ حلب إلى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام [٤]، ونجح في تحقيق هذا الهدف، وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية منتهزاً فرصة الهدنة[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٤.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٠.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٤٠.

ثالثاً: مشكلة الوراثة الأنطاكية:

وصادف عام ٥٢٤هـ أن اجتازت أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي بسقوط هذه الإمارة في يد زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الأقل. ذلك أن أميرها (بوهيمند الثاني) قتل هذا العام على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى، فخلفته في الحكم زوجته (أليس) ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس، وعندما استنجد الأنطاكيون بأبيها، واتجه لإنهاء المشاكل هناك، أسرعت ابنته وبعثت رسولاً إلى زنكي تعرض عليه إعلان طاعتها له مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية. لكن الرسول ما لبث أن قتل على يد بلدوين، الذي عثر عليه أثناء توجهه إلى أنطاكية، إلا أن ملك بيت المقدس ما إن وصل إلى هناك حتى قامت ابنته بإقفال الأبواب في وجهه ثم ما لبثت أن أعلنت - مضطرة - خضوعها له[١] وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض، كان ستتيح له - بلا شك - السيطرة على أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

رابعاً: فتح الأثارب:

كان عماد الدين آنذاك قد أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر[٢]، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفاً أشدها قرباً وخطراً على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الأثارب المجاورة هو ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه من أضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة أعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم، نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة [٣]، اتجه عماد الدين زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه، فلما علم صليبيو الشام بذلك حشدوا قواتهم من كل مكان، وشكلوا جيشاً ضخماً اتجهوا به لقتال زنكي، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب، وترك الحصن، لأن لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة، إلا أنه أجابهم إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين أيديهم، طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال [٤]. ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيداً عن الأثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل وأسر عدد كبير من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي أن اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه [٥]. كيلا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب عليها الحصار، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته، فأجابهم إلى ذلك، وقفل عائداً إلى حلب [٦]. وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من أهم نتائج معركة الأثارب، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهاً جديداً

(١) عماد الدين زنكي ص ١٤٠.
(٢) الباهر ص ٣٩ عماد الدين زنكي ص ١٤٠.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٤٠.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٤١.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٤١.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٤١.

لصالح المسلمين الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع [١].

خامساً: حصن بعرين أوبارين:

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات بين (٥٢٥ - ٥٢٨هـ/١١٣١ - ١١٣٤م) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطع أن يوجه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني [٢]، وفي عام ٥٢٩هـ أتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب والتي كانت تهددها باستمرار، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها: الأثارب، زردنا، تل أغدي، معرة النعمان، وكفر طاب [٣]، أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه، وراحو يتحينون الفرصة المواتية لإنزال هذه الضربة وبعد عامين وحينما كان منهمكاً في حصاره لحمص، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيد عن حمص كيل يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين إليه، وتتيح له في نفس الوقت تولي زمام المبادرة بنفسه، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب وما إن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، كان ريموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين [٤]. وما لبث عماد الدين زنكي أن تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصاراً شديداً، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين وأوروبا طالبين النجدة من أبناء العالم المسيحي وأمرائه قائلين لهم أن زنكي، إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام، لعدم وجود من يدافع عنها: وأن المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس. فجمع المسيحيون جيشاً كبيراً من الصليبيين والبيزنطيين، وساروا لنجدة الحصن. إلا أن زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي ومنع عنه تسلل الأخبار، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع الهام أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، الأمر الذي اضطر أصحابه إلى طلب الصلح، فأجابهم زنكي إليه، بعد أن علم بتقدم الأعداء لنجدته، واشترط عليهم، فضلاً عن تسليم الحصن، تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين بها على نشاطه العسكري، فلم

(١) المصدر نفسه ص ١٤١ نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٣.
(٣) زبدة حلب (٢٥٩/٢) عماد الدين زنكي ص ١٤٢.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ - ٢٥٩ عماد الدين زنكي ص ١٤٢.

يتردد أصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي، بعد أن أيقنوا بعجزهم عن مقاومته، والتمسو منه إطلاق سراح أمرائهم وكبار أسراهم، فأطلقهم، بعد أن عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن [١]. والواقع أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد والصبر ساعده في تحقيق أهدافه، وهو على يقين بما يفعله، فلم تكن بارين قلعة غير ذات أهمية، إذ أن تملكها سوف يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي، كما أن موقعها الإستراتيجي يجعلها تسيطر على حماة وحمص، ويُعدُّ فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية[٢].

١ – الشاعر ابن القيسراني يخلد انتصار عماد الدين في بارين:

قال عنه الذهبي في سيره: سيد الشعراء، أبو عبد الله، محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني ولد بعكَّا ونشأ بقيسارية، وسكن دمشق وامتدح الملوك.. وقرأ الأدب، وأتقن علم الهيئة والهندسة قال عنه السمعاني: هو أشعر من رأيته بالشام، ولد سنة ثمان وسبعين وأربع مئة، وتوفي سنة ثمان وأربعين، وخمس مئة [٣] ويعتبر القيسراني من أشهر شعراء العهد الزنكي وقد خلد انتصارات عماد الدين في بلاد الشام، وشهد بأم عينيه البطولة الإسلامية وهي تحقق الانتصارات الرائعة على الصليبيين وقد قال هذا الشاعر قصيدة مدح فيها عماد الدين زنكي وخلد انتصاره على الفرنجة في معركة بارين أمنع حصونهم، سنة ٥٣٤هـ[٤].

حـــذار منـــا وأنَّـــى ينفـــع الحَـــذَرُ	:::	وهـــي الصـــوارم لا تبقـــي ولا تَـــذَرُ
وأيـــن ينجـــو ملـــوك الشَّـــرك مـــن مَلِـــكٍ	:::	مَـــمْ خيلُـــهُ النصـــر لا بـــل جُنْـــدُهُ القَـــدَرُ
ســـلُّوا ســـيوفاً كأغمـــاد السُّـــيوفِ بهـــا	:::	صـــالوا فمـــا غَمَـــدُوا نَصْـــلاً ولا شـــهروا
حتـــى إذا مـــا عمـــاد الـــدين أرهَقَهُـــم	:::	فـــي مـــأزق مِـــنْ سَـــنَاه يَبْـــرُقُ الـــبَصَرُ
وَلَّـــوْا تضـــيق بهـــم ذَرْعـــاً مســـالكهم	:::	والمـــوتُ لا ملجـــأٌ منـــه ولا وَزَرُ
وفـــي المســـافة مـــن دون النَّجـــاة بهـــم	:::	طُـــولٌ وإن كـــان فـــي أقطارهـــا قِصَـــرُ
وأصـــبح الـــدِّين لا عينـــاً ولا أثـــراً	:::	يخـــاف والكُفْـــرُ لا عـــين ولا أثَـــر
فـــلا تخـــف بعـــدها الإفـــرنج قاطبـــة	:::	فـــالقوم إن نفـــروا أَلْـــوى بهـــم نَفَـــرُ
إن قـــاتلوا قُتلـــوا أو حـــاربوا حُرِبـــوا	:::	أو طـــاردوا طُـــرِدوا أو حاصـــروا حُصِـــروا
وطالمـــا اســـتفحل الخطـــبُ البهـــيمُ بهـــم	:::	حتـــى أتـــى مَلِـــكٌ آراؤه غُـــرَرُ
والســـيف مُفْتـــرِعٌ أبكـــارَ أنفســـهم	:::	ومـــن هنالـــك قيـــل الصـــارم الـــذَّكَرُ
لا فارَقَـــتْ ظِـــلَّ محيـــي العَـــدْل لامعـــة	:::	كالصُّـــبْح تطـــوي مـــن الأعـــداء مـــا نَشَـــرُوا
ولاَ انثنـــى النَّصْـــر عـــن أنصـــار دَوْلتـــه	:::	بحيـــث كـــان وإن كـــانوا بـــه نُصِـــرُوا
حتـــى تعـــود ثُغـــورُ الشـــام ضـــاحكة	:::	كأنمـــا حَـــلَّ فـــي أكنافهـــا عمـــر[٥]

ويعتبر عماد الدين زنكي أول من مدحه ابن القيسراني من الزنكيين وكان جمال الدين

(١) عماد الدين زنكي ص ١٤٣.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٧.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢٦/٢٠).
(٤) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص ٢٥.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٣٢/١).

الأصفهاني وزير عماد الدين السبيل الذي أوصله إليه، فنظم في جمال الدين القصائد ومدحه بمدائح كانت - كما يقول العماد - أجود ما سمع من منظومه في الأفاضل [١] ومما قاله في مدح جمال الدين الأصفهاني:

وإذا الوفـــود إلـــى الملـــوك تبـــادرت ::: فعلـــى جمـــال الـــدين وفـــد محامـــدي
يـــا حبـــذا هـــم إليـــك أصـــارني ::: وعزيمـــة تقفـــو رياضـــة قائـــد
أنـــا روضـــةٌ تزُهـــى بكـــل غريبـــة ::: أفرائـــدي مـــن لـــم يُفْـــر بفرائـــدي
إن ســـاقني طلُـــب الغنـــى أو ســـاقني ::: حـــبُّ العُـــلا فلقـــد وَردَتُ مـــواردي
ومتـــى عَـــدّدْت إلـــى نـــداك وســـائلي ::: أعْـــدَدْتُ قصـــدي مـــن أجـــلَّ مقاصـــدي
حتـــى أعـــود مِـــن امتـــداحك حاليـــاً ::: وكـــأنني قُلَّـــدتُ بعـــض قلائـــدي [٢]

ومما قال فيه أيضاً:

ومـــروَّع سَـــكَنَتْ خوافـــقُ أمنـــه ::: لـــولا جمـــال الـــدين عـــزَّ أمانـــه
أمحمـــد بـــن علـــيَّ اعتنـــقْ الأســـى ::: فكـــري فضـــاق بفـــارس مَيدانُـــهُ
مـــا بـــالُ حـــادي المجـــد مغبَّـــر المـــدى ::: وأخـــو الهُـــوَينى روضـــةٌ أعطانُـــهُ
وأنـــا الـــذي لا عيـــب فيـــه لقائـــل ::: مـــالم يُقـــلْ هـــذا الزمـــان زمانـــه
فهـــل المحامـــد ضـــامناتٌ عنـــكَ لـــي ::: معنًـــى علـــى هـــذا البيـــانِ بيانُـــه؟
وهـــي القـــوافي مـــا تنـــاظر بالنـــدى ::: إلا وقـــام بفضـــلها برهانُـــهُ
مـــا كـــان بيـــتُ فضـــيلةٍ فـــي فـــارس ::: إلا ومـــن عربيتـــي ســـلمانُهُ [٣]

وقد أورد الذين ترجموا لابن القيسراني طائفة مختارة من شعره ولاسيما العماد الكاتب في خريدته وياقوت في إرشاده وقد درس مجموعة من الناقدين شعره ومن أشهرهم من المعاصرين الدكتور عمر موسى باشا وقد أشار إلى أن شعره تميز باتجاهات عامة ثلاثة، تصور الأحداث الكبرى في بلاد الشام والاتجاه التقليدي في المدح، والتجديد في معاني الغزل والنسيب ونحن ندعو شعراء اليوم للقيام بواجبهم في بث روح الجد والعمل والجهاد في الأمة من خلال ملكة الشعر التي وهبها الله لهم.

أ – **أحداث كبرى**: صور الشاعر الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير، ووصف من خلال المدح الأبطال المسلمين وحروبهم ورسمها بدقة، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المشتجرة بين المسلمين والفرنجة ونستطيع القول: إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الآسر، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن ولم يبق الشاعر كما كان كثير من سابقيه أسير المعاني التقليدية المعروفة: جود، وبأس، وحلم وجد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج وتبذل له الأرواح في سبيل العقيدة، وصوت الأوطان، وحماية الأعراض، وطرد المغتصب، فقد أدى الشاعر مهمته خير أداء، فصور هذه الأحداث الجسام ونظمها في شعره، وخلدها على توالي

(١) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٧٧.
(٢) الخريدة (١٠٤/١، ١٠٦) الأدب في بلاد الشام ص ١٧٧.
(٣) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٧٨.

الأيام وتعاقب الدهور، شأنه في ذلك كأي مؤرخ [١]، وقد تفاعل مع الأحداث ومما قاله في عماد الدين زنكي وجهاده:

فقل لملوك الكفر تُسلمُ بعدها ::: ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصُّبح فلينته الدجا ::: فيا طالما غال الظلام امتداده
ولله عزمٌ ماء سيحان وردهُ ::: وروضة قسطنطينة مسترداه[٢]

ب – التجديد في معاني الغزل والنسيب: درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب وعلى هذه السنة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض القصائد وله في هذه المجال كلام يطول[٣] وقد وصف العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده أنها: قطعت مجنسة في لطافة الهواء، مالكة رق الأهواء، خلصت من كلفة التكلف، وصفا مشربها عن قذى التعسف، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما ينفق فيها الأبيات المطبوعة، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر، والفكر الحاضر، والقريحة الصافية والآداب الوافرة الوافية، وربما يندر للناظر مقطعات يرزق فيها القبول، كهذه القطعة التي تسلب العقول [٤].

ومما قاله في هذا الباب: ؟؟؟

سقى الله بالزوراء [٥] من جانب الغرب ::: مهاً وردت عين الحياة من القلب
عفائف إلا عن معاقرة الهوى ::: ضعائفُ إلا في مغالبة الصبَّ
عقائلُ تخشاها عُقيلُ بن عامر ::: كواعب لا تعطى الدَّمام على كعب
إذا جاذبْهُنَّ البوادي مزيَّة ::: من الحسن شبهَّن البراقع بالنقب
تظلمتُ من أجفانهنَّ إلى النَّوى ::: سفاها وهل يعدي البعادُ على القُرب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي ::: حنانيك سر بي عن ملاحظة السَّرب
إذا كانت الأحداق نوعاً من الظُّبا ::: فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب
هبوني تعشقت الفراق ضلالة ::: فأصبحت في شعب وقلبي في شِعْب
فما لي إذا ناديت يا صبرُ منجداً ::: خذلت، ولبى إن دعا حرقةً لبَّي
تقضَّى زماني بين بينٍ وهجرة ::: فحتامَ لا يصحو فؤاديَ مِنْ حبِّ
وأعجب ما في خمر عينيه أنها ::: تضاعف سكري كلما قلَّلت شربي
إذا لم يكن في الحب عندي زيادة ::: تُرجَّى فما فضلُ الزيارة عن رغبَّ
فصرت إذا ما هزَّني الشوق نحوهم ::: أحلت عذولي في الغرام على صحبي [٦]

٢ – ابن منير الطرابلسي يمدح عماد الدين في بارين:

شاعر الشام أبو الحسين، أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي، صاحب ديوان مشهور

(١) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٨٧.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٧/١، ٣٨).
(٣) الأدب في بلاد الشام ص ١٨٩.
(٤) الخريدة (٩٨/١) نقلاً عن الأدب في بلاد الشام ص ٢٠٤.
(٥) الزوراء: أي مدينة الزوراء، وسميت دجلة بغداد الزوراء.
(٦) الأدب في بلاد الشام ص ١٨٩.

ولـه نظم بديع وكان يلقب بمُهَذَّب الدين ويقال لـه: عين الزمان [١] قال ابن عساكر: رأيته مرات، وكان رافضيّاً، خبيث الهجو والفُحش، سجنه بُورى مدة - حاكم دمشق - وهمَّ بقطع لسانه، ثم تَسَحَّبَ، فلما ولي شمس الملوك عاد إلى دمشق، فبلغ شمس الملوك عنه أمرٌ، وأراد صلبه، فاختفى، وهرب، ثم قدم في صحبة نور الدين، وتوفي في جمادي الآخر سنة ثمان وأربعين وخمس مائة بحلب وكان هو والقيسراني كفرسي رهان، ولكن القيسراني سُنيَّ دَيَّن [٢].

ولقد صّور ابن منير في مدائحه الزنكية كفاح المسلمين البطولي ضد الغازين الصليبيين ومما قاله في موقعة بارين:

فـــــدتك الملـــــوك وأيّامهـــــا ::: ودان لنقضـــــك إبرامهـــــا
وزلـــــت لِعَيْنِـــــك أقْـــــدامُها ::: وزال لبطشـــــك إقـــــدامُها
ولـــو لـــم تُســـلِّم إليـــك القلـــوب ::: هواهـــا لمـــا صـــحّ إســـلامها
أيـــا محيـــي العـــدل لَمَّـــا نعـــاه ::: أيـــامَى البرايـــا وأيتامهـــا
وُمنْقِـــذَ الـــدِّين مـــن أُمَّـــةٍ ::: أذال المحاريـــب أصـــنامها
دَلَفْـــتَ لهـــا تقتفيـــك الأســـود ::: والبـــيض والســـمر آجامهـــا
جَـــزَرْتَ جزيرتهـــا بالســـيوف ::: حتـــى تشـــاءمها شـــامها
وصـــارت عـــواريَّ أكنافـــه ::: متـــى شـــئت أرخـــص مُسْـــتامُها [٣]

تصور هذه الأبيات حب الشاعر لعماد الدين وإعجابه به وشماتته بأعدائه الصليبيين، فيفتحها بالدعاء بأن يجعل الله ملوك الصليبيين فداء لعماد الدين وبأن يديم قدرته على نقض ما يبرمون ويرجو أن تزل أقدامهم أمام ثبات أقدامه وأن تزول أقدامهم أمام بطشه ويرى أن قلوب المسلمين لا يصح إسلامها إذا لم تسلم إليه زمامها، وهو الذي أحيا العدل بعد أن بكت على فقده الأرامل والأيتام وأنقذ الدين من الصليبيين الذين أزالوا المحاريب وأقاموا مقامها الأصنام ثم يمدحه لفتحه الجزيرة بسيوفه حتى تشاءم أهل الشام وتوقعوا أن يحل بهم ما حلّ بإخوانهم أهل الجزيرة [٤].

سادساً: الإمبراطور البيزنطي يغزو بلاد الشام:

١ – ظروف قيام الحملة:

ذكر ابن الأثير أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بارين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي والغرب الأوروبي: فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد بيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢٣/٢٠).
(٢) المصدر نفسه (٢٢٤/١٠).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٣٢/١).
(٤) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.

الروم[١]، والواقع أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليسن لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها والنبلاء الآخرين، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستاس من ابنه مانويل [٢] وقد صادف هذا العرض قبولاً حسناً من قبل الإمبراطور، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية في تبعية بيزنطية، وهي ما تسعى إليه جاهدة منُذ الحملة الصليبية الأولى، وهو الأمر الذي لا يقرُّه بقية الزعماء الصليبيين لذلك سارعوا بتزويج كونستانس من ريموند دي بواتييه وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تمَّ دون استشارته لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند[٣]. والحقيقة أن العداء قد اشتد بين البيزنطيين والصليبيين مُنذ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للأمبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلدات التي كانت فيما مضى من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية قبل أن يفتحها المسلمون، وقد تركّز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية، لأن هذه الإمارة بالإضافة إلى إمارة الرها كانت تشكل أهمية دينية وعسكرية وتجارية في السياسية البيزنطية، وعدَّت بيزنطة هذه البلدات جزءاً من ممتلكاتها والواضح أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن الذين سكنوها مُنذ أكثر من مائة عام، التوغل داخل الأراضي البيزنطية وتهديدها، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني توطيد النفوذ اللاتيني المضر بالمصالح البيزنطية، مما يعرِّض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مدنها الرئيسية كانت تشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام تطرفاً إلى جهة الشمال، مما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية [٤]، ويذكر أن الإمبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

* إعادة الحدود الآسيوية للإمبراطور إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
* طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
* طرد الأرمن من كيليكية.
* إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية.
* استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي الشام [٥].

وحتى يؤمن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، عقد يوحنا اتفاقيات أمنية مع سلاجقة

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص١٣٨.
(٢) معالم التاريخ الإسلامي الوسيط ص ٢٠٥.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٨.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٩.
(٥) المصدر نفسخ ص ١٣٩.

الروم في الأناضول في عام ٥٣١هـ أما الدانشمهديون في سيواس، فقد انهمكوا في منازعات أسرية، فلم يشكلوا أي خطر جدَّي على الإمبراطورية، فأضحى بوسعه بعد ذلك التدخل في أمور بلاد الشام وهو مطمئن [١].

٢ – السيطرة على كيليكية وأنطاكية:

تمكَّن الإمبراطور البيزنطي من السيطرة على القلاع الأرمينية في كيليكية وتابع زحفه نحو الجنوب، فاجتاز إسكندرونة، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته بعد كيليكية، فظهر أمام أسوارها، وضرب الحصار عليها، فاضطر صاحبها، ريموند بواتيه، أمام ضخامة وقوة الجيش البيزنطي من جهة، وعدم حصوله على مساعدات الصليبيين في الرها وبيت المقدس من جهة أخرى، إلى الخضوع لإرادة الإمبراطور بعد حصوله على موافقة الملك فولك وتسلّم الإمبراطور البيزنطي المدينة، إلا أنه لم يُصر على الدخول إليها، غير أن العلم الإمبراطوري ارتفع بأعلى القلعة[٢].

٣ – زحف الحملة على حلب:

وجرت مباحثات بين الصليبيين والبيزنطيين أدّت إلى ما يلي:

* قيام تحالف بينهم.

* توحيد الجهود العسكرية وتوجيهها للقيام بحملة نصرانية كبرى ضد مسلمي بلاد الشام بهدف:

* تحطيم قوة عماد الدين في حلب.

* القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

* إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص.

* تعيين ريموند بواتييه أميراً على تلك الإمارة.

* ترك ريموند إقليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي.

* إنجاز هذا العمل التوسعي في الصيف القادم ١١٣٨م [٣].

دلت المفاوضات على ما يشعر به الصليبيون من الضيق والقلق نحو الإمبراطور البيزنطي، إذ أن موافقة الملك فولك أملتها فيما يبدو واقعية الظروف السياسية السيئة التي كان يمر بها الصليبيون حيث كان يُدرك جيداً أن عماد الدين زنكي هو العدو الأكبر للصليبيين، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكها وهي الوحيدة القادرة على وقف تقدمه، ومن جهته، فإن يوحنا كومنين كان واقعياً

(١) المصدر نفسه ص ١٣٩.
(٢) الحروب الصليبية، رنسيمان (٣٤١/٢).
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٤١.

في تفكيره السياسي، فأدرك أن مصلحة النصارى العامة تقضي بعدم طرد الصليبيين من أنطاكية دون أن يبذل لهم تعويضاً يضاف إلى ذلك، أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعة يتحكم في سياساتها العامة، وتتحمل في الوقت نفسه صدمات، كما تجلّت أطماعه في أملاك المسلمين بالشام ويبدو أن أخبار هذا الاتفاق قد تسربت إلى أهالي حلب الذين قاموا بأعمال التحصين وحفر الخنادق، كما أن الأمير سوار قام بمهاجة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية لقضاء فصل الشتاء وظفر بسرية وافرة العدد من عسكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب [١] ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية وما كان يبيته من هجوم على حلب في العام التالي، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين زنكي، فأرسل إليه رسولاً أخبره بأنه ذاهب لقتال الأرمن وأن البيزنطيين ليسوا راغبين في أن يبادروا إلى مهاجمته وهو ينوي خداعه حتى يطمئن إليه [٢] ثم ما لبث أن أصدر أوامره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب، كيلا تصل أنباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي [٣]، ومن ثم تقدم الإمبراطور، يصحبه أميرا الرها وأنطاكية، وبدأوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب وتمكنوا من الاستيلاء عليه [٤]، وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا إلى حلب، حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية، وأرسلوا إلى زنكي يطلبون نجدة مستعجلة، فأمدهم بقوة من الفرسان، كان لدخولها حلب تأثير كبير على رفع معنويات أبنائها وما إن وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصار عليها، حتى أدركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى أن الحلبيين أخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم، فآثروا الإنسحاب، ولما علم جند الأثارب بذلك، خافوا من توجه المتحالفين إليهم، فأحرقوا خزائن القلعة وانسحبوا، وقام الإمبراطور - إثر ذلك - بإرسال بعض قواته إلى هذا الموقع، فتمكنت من الاستيلاء عليه. أما هو فقد تقدم على رأس القسم الأكبر من جنده إلى معرة النعمان واستولى عليها، وتوجه من هناك إلى شيزر، وفرض الحصار عليها ساعياً بذلك إلى وضع يده على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً أمام مطامح وأهداف زنكي البعيدة في المنطقة [٥].

٤ – مناصرة عماد الدين زنكي لبني منقذ في شيزر:

أبدى أهالي حلب مقاومة عنيفة للقوات الغازية فضلاً عن وصول نجدة عماد الدين زنكي مما أقنع الإمبراطور بعدم جدوى الاستمرار لحصار المدينة، فغادرها واتجه إلى حصن الأثارب وملكوه ثم احتلوا بعد ذلك معرة النعماة وكفر طالب واتجهوا إلى شيزر [٦] كما ذكرنا وكانت حجم القوات الغازية: مائة ألف راكب ومائة ألف راجل، ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصيه إلا الله: وأمام

(١) المصدر نفسه ص ١٤١.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٤١.
(٣) زبدة حلب (٢٦٤/٢) عماد الدين زنكي ص ١٤٤.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٤٤.
(٥) الباهر ص ٥٥ عماد الدين زنكي ص ١٤٥.
(٦) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص ١٥٦.

هذا الخطر الكبير ما كان من حاكم شيزر أبو العساكر إلا أن يعزز من استحكامات المدينة ويطلب النجدة من عماد الدين زنكي، الذي أسرع بالقدوم إلى المنطقة ونزل حماة واتخذها قاعدة لقواته [١]. وشرع الإمبراطور في بادئ الأمر بمهاجمة حصن الجسر، وتمكن من زحزحة المدافعين الذين انسحبوا عنه إلى داخل حصن شيزر، واتخذ الإمبراطور من ذلك الحصن الواقع على الجهة اليمنى من نهر العاصي مقراً له، ثم اندفع فرسانه إلى الجزء الذي عليه " البلد " وأظهر بنو منقذ مقاومة عنيفة في المعركة التي جرت بين الطرفين وجرح فيها أحد أمرائهم، وهو أبو المرهف نصر بن منقذ الذي توفي فيما بعد متأثراً بجروحه وتمكن عدد من المهاجمين من النفاذ إلى داخل القلعة من خلال إحدى الثغرات التي أحدثتها قذائف المنجنيقات إلاّ أن رجال بنو منقذ تصدوا لهم وأجبروهم على

الانسحاب من المدينة [٢] ولكن البيزنطيين ظلوا يحتفظون ببعض المواقع المتقدمة في ضواحي المدينة، واستمرت غاراتهم مدة عشرة أيام، ثم اقتصر القتال فيما بعد على ضرب المدينة بالمنجنيقات [٣].

أ – توزيع القوات المهاجمة: توزعت القوات المهاجمة في أثناء فترة القتال على النحو التالي: قوات ريموند حاكم أنطاكية الذي كان يتمركز في مسجد سمّون الذي يقع بالقرب من باب المدينة وقوات حاكم الرها جوسلين الثاني الذي اتخذ مواقعه في الساحة العامة المخصصة للصلاة أما الإمبراطور يوحنا فبعدما عجز عن تحقيق النصر في غارته على المدينة اختار مرتفعاً مقابلاً لشيزر يعرف باسم جبل جرجيس ونصب عليه ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب كانت تضرب المدينة بشكل مباشر، وتمنع المدافعين عنها من الوصول إلى النهر والتزود من مائه [٤]، وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر أسامة بن منقذ أن جماعة من الراجلة من أهالي شيزر خرجوا لقتال المهاجمين ولكنهم قتلوا وأسر البعض منهم[٥]، وقد أثارت المنجنيقات التي جلبها البيزنطيون معهم الاستغراب والذعر لدى أهالي شيزر، نظراً لضخامتها ولما ألحقته من خراب ودمار بالمدينة حتى وصفها أسامة بأنها: مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ حجرها ما تبلغه النشّابة، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً [٦]، ويذكر أن إحدى القذائف أصابت منزلاً لصديق له يدعى يوسف بن أبي الغريب فانقلب رأساً على عقب وأن أخرى وقعت على القاعدة الحديدية التي أثبتت عليها السارية المرفوعة في دار عمه الأمير فكسرتها على أحد المارة فقتلته [٧].

ب – موقف عماد الدين زنكي من هذه المجابهة: وأما عن دور زنكي في هذه المجابهة فإنه لدى

(١) الباهر ص ٥٥، أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٥٨.
(٢) الاعتبار ص ١٤٦.
(٣) زبدة حلب (٢٦٧/٢) أسرة بني منقذ ص ١٥٨.
(٤) أسرة بني منقذ ص ١٥٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٩.
(٦) الرطل: كان يعادل آنذاك الكيلو ونصفاً الاعتبار ص ١٤٥.
(٧) الاعتبار ص ١٤٥ - ١٤٦ أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٦٠.

سماعه استغاثة أبي العساكر هرع بقواته إلى المنطقة واختار موضعاً بين حماة وشيزر على ضفاف نهر العاصي، ولم يشأ أن يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين وحلفائهم نظراً لتفوقهم عليه عدة وعدداً: وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم [١]، ويضيف ابن القلانسي أن عماد الدين زنكي كان يجول بخيله على أطرافهم ويفتك بمن يظفر به: فضلاً عن قيامه بمساعدة بني منقذ بالرجال والسلاح، كما أنه استطاع منع وصول المؤن إلى القوات المهاجمة [٢]، فأثّر هذا في زيادة حراجة الموقف بالنسبة لهم ويؤيد لنا هذا الرهاوي في تاريخه بقوله: وشرعت القوات تشعر بالنقص في المؤونة، لأن شعباً فقيراً كان معهم وكان عماد الدين زنكي بمهارته يمنع باحتراس وصول شيء إليهم [٣].

* **أساليب الحرب النفسية**: ولجأ عماد الدين زنكي إلى اعتماد أساليب الحرب النفسية تجاه أعدائه، فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يقول له: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه [٤]. وعندما أشار الفرنجة على الإمبراطور بالاستجابة لمنازلة عماد الدين قال لهم: أتظنون أن معه من العساكر من ترون وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه، إنما يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له [٥].

* **طلب النجدة من مختلف المناطق**: ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين زنكي قد أرسل في طلب النجدة من مختلف المناطق، فأرسل إلى القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال عماد الدين: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها [٦]. وهذا الموقف درس عملي من عماد الدين للقادة السياسيين والعسكريين في الولاء والبراء قال تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ**} [المائدة: ٥١]. وقال رسول الله ρ: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله**

(١) الكامل في التاريخ (٧٣٩٦/٨٧).
(٢) الباهر ص ٥٥ أسر بني منقد ودورها السياسي ص ١٦٠.
(٣) أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٦٠.
(٤) الكامل في التاريخ (٧٥٠/٨).
(٥) الكامل في التاريخ (٧٤٠/٨).
(٦) مفرج الكروب (٧٩/١).

والحب في الله والبغض في الله» [١]، وكم ضاعت من بلاد المسلمين قديماً وحديثاً بسبب ضياع هذا المبدأ العقائدي المهم في حياة الأمة قال القاضي كمال الدين: فسرت طالب بغداد وجدت في السير، فلما وصلت بغداد وحضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد شيئاً فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلاناً وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء - فقلت له: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: واإسلاماه؛ ودين محمداه ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ثم وضعت إنساناً آخر فعل ذلك في جامع السلطان؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان؛ وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة فقال: أحضروا القاضي ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت قال: يا قاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه؛ فقال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا، وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس من خيار العسكر، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير: وأجدد استئذانه في ذلك فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة، وإذا قد وصل نجَّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر؛ فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد [٢] ويتضح لنا مما تقدم مدى بعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه أنقذ عماد الدين زنكي من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذ وصلت عساكر السلطان إلى الشام في ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين عن حلب ويكفي هنا أن نوضح أهمية وجود القاضي كمال الدين في دولة عماد الدين زنكي أن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الفقيه مع السلطان مسعود، إذ يقول: فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٤٣/٢) ج ٢٥٣٦.
(٢) مفرج الكروب (٨٠/١، ٨١).

عشرة آلاف فارس، رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم في البلاد ويوفر لهم العطاء [١] إن عماد الدين زنكي، ثبت الله ملكه بالعلماء، فقد جاء إلى حكم الموصل بسبب آرائهم، وأنقذه الله من انقلاب محقق على أيديهم، وأبعد الله عنه أطماع السلطان مسعود بسبب حنكة العلماء وذكائهم من أمثال القاضي كمال الدين الشهرزوري ولهذا كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي، فقد قال عن جهوده وأعماله: إن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار [٢] هذا وقد أرسل عماد الدين إلى سلاجقة الروم يشير عليهم بالإغارة على المواضع البيزنطية في آسيا الصغرى حتى ينصرف البيزنطيون عن القتال هناك [٣]، وصدق حدس الإمبراطور عندما وردته أخبار مفادها قدوم أرسلان بن داود ومعه عساكر بلغ تعدادها عشرين ألف فارس لنجدة شيزر [٤].

* **سهام الحيلة والدهاء يطلقها عماد الدين زنكي**: أدرك زنكي كنه العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة فلجأ إلى اعتماد أسلوب الحيلة والخداع لتعميق الخلاف بينهما فراح يراسل إفرنج الشام ويحذرهم من ملك الروم، ويحملهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه بأن الفرنج معه. فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين [٥] سيما وأن أميري الرها وأنطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الإمبراطور، فضلاً عن اشتداد المنافسة بينهم، وتخوف ريموند من انتصار الروم، وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم، والتي تجعله يقف وجهاً لوجه أمام قوات المسلمين بعيداً عن أنطاكية ولم يرغب أمير الرها - هو الآخر - في أن يكون منافسه ريموند قريباً منه في حلب، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم، وقد عرقلت هذه العوامل جميعاً توحيد الجهود لفتح شيزر [٦]. ووردت أنباء إليه أن أمير حصن كيفا الأرتقي أرسل ابنه على رأس جيش كبير من التركمان [٧] وأن قوات دمشق تحركت تحركت لمساعدة زنكي[٨].

ج – **فك الحصار عن شيزر**: إزاء هذا وذاك رأى الإمبراطور أن الانسحاب أصبح أمراً محتماً فأنهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان (٥٣٢هـ)، بعد أن عرض عليه أميرها مبلغاً من المال [٩]. وقال له: أيها الملك إن الفرنج خدعوك إذ دفعوك إلى محاصرة هذا الموضع، بينما نحن لم نسئ إلى أحد قط ولم نضايق المسيحيين، فاستجاب الإمبراطور بسبب الضغوط الخارجة عن يده وأعلن

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٢.
(٢) الباهر ص ٦٣ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص ١١٢.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (٣٤٦/٢).
(٤) أسرة بني منقذ ص ١٦١.
(٥) الباهر ص ٥٦ عماد الدين زنكي ص ١٤٦.
(٦) محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي ص ٢٣٥.
(٧) زبدة حلب (٨٢٦٨/٢).
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٩) عماد الدين زنكي ص ١٤٧.

الانسحاب وبادر بنو منقذ بإرسال هدايا إليه قوامها آنية كنيسة من الذهب والفضة وصلبان من الذهب مرصعة باليواقيت، وهي بقايا الغنائم التي حصل عليها آباؤهم في أثناء مشاركتهم في معركة ملاذكرد [١]، وقاد يوحنا كومنين الإمبراطور البيزنطي القوات المسيحية في طريق العودة إلى أنطاكية وحينئذ انقض عماد الدين زنكي على آلاتهم الحربية الثقيلة ومجانيقهم العظام فاستولى عليها ورفعها إلى قلعة حلب [٢]، كما أرسل بعض جنده في آثار قوات العدو المنسحب، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم [٣]، وفي أنطاكية حدث خلاف جديد بين الإمبراطور والصليبيين، كاد أن ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين لولا إسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده [٤].

د – أسباب فشل الحملة: يمكن تحديدها فيما يلي:

* عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور [٥].

* اشتداد المنافسة بين كل من ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد النصارى سُيجبر على أن يقيم بها، وفقاً للاتفاقية المُبرمة بين الحلفاء وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات النصرانية المواجهة للمسلمين وسيبتعد نتيجة ذلك عن أنطاكية ومباهجها. أما جوسلين الثاني يكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه، فإنه لم يود أن يراه مستقراً في شيزر، وفي حلب فيما بعد، فحاول الإيقاع بينه وبين الإمبراطور، ونجح في [٦] ذلك.

* انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد الإمبراطور يوحنا بعيداً عن الإمبراطورية، وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي فقام بمهاجمة مدينة أذنة، ولا شك أن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الإمبراطور لأنه خرج بجيشه من أجل العمل على ضمِّ أنطاكية إلى أملاك بيزنطية، لا من أجل فقدان بعض أملاك الإمبراطورية، مما حمله على فك الحصار وشرع في العودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة [٧].

* اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية ذكية يمكن أن نطلق عليها الحرب النفسية إذا جازت هذه التسمية في ذلك الوقت. ذلك أنه راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين [٨] من شركم وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الإمبراطور بالنزول إليه وقتاله ولكن يوحنا خشي مغبَّة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حد له

(١) أسرة بني منقذ ص ١٦٣.
(٢) زبدة حلب (٢٦٨/٢) الباهر ص ٥٦.
(٣) الباهر ص ٥٦ عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٤) زبدة حلب (٢٦٨/٢) عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٥) الباهر ص ٥٦ عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٤٥.
(٧) المصدر نفسه ص ١٤٥.
(٨) المصدر نفسه ص ١٤٥.

عليه وفي نفس الوقت كان يراسل صليبي الشام يحذِّرهم من إمبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الإمبراطور يخوِّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما، وكان قد بلغ الإمبراطور أن قرا أرسلان بن داوود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر، مما كان دافعاً له على فك الحصار عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور [١].

٥ – النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين:

إن أهم النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين هذه، هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية وفي الأيام التي أعقبت انسحاب المتحالفين، استطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب زنكي، أن يستولي على كفرطاب بعد أن بلغه هروب الصليبيين منها [٢]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة، فحاصره وفتحه عنوة، وأسر من فيه من الصليبيين، ثم أمر بتخريبه [٣]. وما لبث أن اتجه في مطلع العام التالي ٥٣٣هـ إلى حصن بزاعة، فاجتاحه عنوة وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والروم، ثم حاصر الأثارب، وتمكن من فتحها - في صفر - وقفل عائداً إلى الموصل [٤] وانهمك زنكي، في الفترة التالية، بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين وقام عام ٥٣٣هـ بعد مناورات وعمليات عسكرية وسياسية، في بعض جهات الجزيرة مستهدفاً ضمهاً لإمارته[٥]، ثم عاد ليستأنف السعي من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية، فاتجه إليها في أواخر العام نفسه، وفرض حصاراً شديداً عليها كاد أن يسقطها في يديه، لولا استنجاد أمرائها بصليبي بيت المقدس، واستجابة هؤلاء لهم، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة، الأمر الذي اضطر الأخير إلى الإنسحاب [٦]، وفي عام ٥٣٨هـ أتيح لزنكي استغلال مركزه القوى في ديار بكر [٧]، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها الصليبية، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين، كجملين والموزر [٨]، وتل موزن، وغيرها من حصون إقليم شيختان [٩]، وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا أرسلان الأرتقي، أمير حصن كيفا. وبين جوسلين أمير الرها،

(١) الباهر ص ٥٦ عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٢) زبدة حلب (٢٦٨/٢) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٣) الباهر ص ٥٧ عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٤) مفرج الكروب (٨٣/١) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٧) المصدر نفسه ص ١٤٨
(٨) يذكر ابن شداد أنها وجملين قلعتا لهما عمل متسع بين ديار بكر وديار مضر، على مسيرة يوم جران.
(٩) شيختان: هو أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور.

وبسبب تحالفهما ضده [١]، وبذلك تمهد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين [٢].

و – مبالغات عند الكتّاب الأوروبيين متعلقة بشيزر: عند الحديث عن حقيقة انسحاب الإمبراطور عن شيزر يلاحظ عنصر المبالغة الذي اتسمت به الكتابات الأوروبية وانساق وراءها مؤرخونا المحدثون مفيدة أن بني منقذ أعلنوا عند مفاوضاتهم مع الإمبراطور عن قبولهم بالتبعية والسيادة له، ويبدو أن هذه الكتابات اعتمدت على بعض الروايات البيزنطية التي أرادت أن تغطي الفشل الذريع الذي واجهه الإمبراطور عند أسوار شيزر. والذي يثبت عدم صحتها - كما نرى - هو أن الأمبراطور لم يكن في وضع يسمح له بأن يملي شروطه على بني منقذ للأسباب الآنفة الذكر، حتى أنه لم يمتلك الوقت عند انسحابه لحمل معداته الحربية أو تدميرها فتركها في أماكنها، فأمر زنكي بحملها إلى حلب، يضاف إلى هذا عجز قواته عن صد الهجمات التي كانت تتعرض لها قواته من قبل زنكي بعد انسحابه عن شيزر[٣]، علاوة على أن المصادر العربية والسريانية التي عاصرت تلك الحملة لم تتطرق إلى هذه المسألة[٤].

ز – من عجيب ما يحكى: أن ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفاً: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام [٥].

ح – ابن قسيم الحموي يمدح عماد الدين زنكي: ولد شرف الدين أبو المجد، مسلم بن الخضر ابن مسلم بن قسيم التنوخي الحموي أوائل القرن السادس الهجري بحماة ٥٠٠هـ وهو أحد شعراء العصر الزنكي الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن منير، نبغ في عصر شيخوختهما وبلغ إلى درجتهما[٦] وأحرز ابن قسيم أول نصر أدبي له عام ٥٣٢هـ وكان ذلك في الثلاثينيات من عمره عندما هرع عماد الدين للدفاع عن المسلمين ضد الأطماع الصليبية في شيزر، وقد خلد الشعراء هذا الحادث الكبير وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى، وهي لأعلام شعراء عصر عماد الدين زنكي [٧] ومما قاله من الشعر: ؟؟؟

بعزمك أيها الملك العظيمُ ::: تَذِلّ لك الصَّعاب وتستقيمُ
ألم تر أن كلب الرُّوم لمَّا ::: تبَّينَ أنه الملك الرحيمُ
فجاء يطبّق الفلوات خيلاً ::: كأن الجحْفَل اللَّيْلُ البهيمُ
وقد نزل الزمان على رضاه ::: فكان لِخَطبِه الخَطْبُ الجسيمُ

(١) عماد الدين زنكي ص ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٩.
(٣) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص ١٦٤.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٤.
(٥) الكامل في التاريخ (٧٤٢/٨).
(٦) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين ص ٢٢٨.
(٧) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين ص ٢٣٠.

فحـــين رَمَيْتَـــه بـــك فـــي خمـــيس ::: تـــــيقَّن أن ذلـــــك لا يـــــدوم
وأبصـــر فـــي المفاضـــة [١] منـــك جيشـــاً ::: فـــــأحرن [٢] لا يســـــير ولا يقـــيم
كأنـــك فـــي العجـــاج شـــهاب نـــور ::: توقَّـــدَ وهـــو شـــيطان رجـــيم
أراد بقـــــاء مهجتـــــه فـــــولَّى ::: ولـــيس ســـوى الِحمـــام [٣] لـــه حميمُ [٤]
يؤمَّـــلُ أن تجـــود بهـــا عليـــه ::: وأنـــت بهـــا وبالـــدنيا كـــريم
أَيلـــتمس الفـــرنجُ لـــديك عفـــواً ::: وأنـــت بقطـــع دابرهـــا زعـــيم [٥]
وكـــم جَرَّعْتَهـــا غُصَـــصَ المنايـــا ::: بيـــوم فيـــه يَكْتَهِـــلُ الفَطـــيمُ [٦]
ولمَّـــا أنْ طلبـــتُهُم تمنَّـــى ::: المنيـــة جُوســـلينَهُمُ [٧] اللئـــيم
أقـــام يطـــوَّف الآفـــاق حينـــاً ::: وأنـــت علـــى معاقلـــه مقـــيُم
فســـار ومـــا يعادلـــه مليـــك ::: وعـــاد ومـــا يعادلـــه ســـقيم
إذا خطـــرت ســـيوفك فـــي نفـــوس ::: فـــأوّل مـــا تفارقهـــا الجســـوم [٨]

سابعاً: فتح الرها:

كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس [٩]. وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م [١٠]، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الإستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة [١١]. ومما يوضح ذلك أن الحملة التي قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها في محاولة لانتزاعها من بلدوين الأول [١٢]، وعلى الرغم من أن الرها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم

(١) المفاضة: مكان واسع تندفع منه الغارة.
(٢) فأحرن: في بعض النسخ فأحزن أي بمعنى الأرض الغليظة المرتفعة.
(٣) الحمام: الموت.
(٤) الحميم: صديق.
(٥) زعيم: كفيل.
(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٧٤/١).
(٧) صاحب الرها.
(٨) كتاب الروضتين (١٢٤/١، ١٢٥).
(٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٣٠
(١٠) سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين ص ٨٤.
(١١) إمارة الرها، علية الجازوري ص ٣٤، الجهاد ضد الصليبين ص ٢٣٠.
(١٢) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٣٠.

بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، وفيرة الثروات ساعدت أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق ومن بهنسي وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً [١] واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاع استطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم من أن الرها كانت تعاني من نقطتي ضعف واضحتين، أحدهما: الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة وثانيهما: عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين (السريان والأرمن اليعاقبة) ومن الصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا من مدن بكاملها كسروج والبيرة التي خضعت للصليبيين [٢] ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، أي بينها قاعدة عما في شمال العراق وقاعدتها في الشمال، ولهذا وصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الإسلامية حضها مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق أو الشام أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها [٣].

١ – أوضاع إمارة الرها الداخلية:

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية وانسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبُعد نظر، والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضَّلهم على النصارى الغربيين الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من عدم الاستقرار داخل الإمارة وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوِّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها والجدير ذكره أن هذه شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[٤]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية [٥] ودينية.

---

(١) الحركة الصليبية (٤٢٤/١) سعيد عاشور الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣٠.
(٢) الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣١.
(٣) التاريخ الباهر ص ٦٦، ٦٧، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣١.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٤٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٩.

٢ – عمليات الفتح:

استغل عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح لـه تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه - في الوقت نفسه - في منطقة الرها ليطلعوه - أولاً بأول - على تحركات أميرها الذي ما إن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته [١]، بعد أن اتخذ إجراءً احتياطياً بأن عقد هدنة مع فرار أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته [٢]، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص هناك، من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة [٣]، وجاءت عيون عماد زنكي لتطلعة على النبأ الذي كان يتحرق إليه فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب النجائب الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع. وحاول في البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، مراسل أهالي الرها باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء دياره، إلا أنهم أبوا قبول الأمان [٤]. وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره، أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم - في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان [٥]، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٥٣٩هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، إثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة [٦]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي [٧].

---

(١) الباهر ص ٦٧ عماد الدين زنكي ص ١٥١.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٥١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٢.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٢.
(٥) الحركة الصليبية (٦٠٥/٢، ٦٠٦) عاشور عماد الدين زنكي ص ١٥٢.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ - ٢٨٠) عماد الدين زنكي ص ١٥٢.
(٧) عماد الدين زنكي ص ١٥٣.

٣ – سياسة عماد الدين زنكي في الرها:

رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله [١] وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فأعيدوا ولم يفقد إلا الشاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بإجمال السيرة وبسط العدالة [٢] مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين [٣].

٤ – العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها:

هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

* تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمر من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موت بطيء لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

* ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكي العسكرية الذي فأجا تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

* زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية أثر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً [٤]، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هي - لحسن الحظ - إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

* ولا نغفل - من ناحية أخرى شخصية أمير الرها جوسلين الثاني الذي لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات، بل إنه كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باثر من

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ١٥٣.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ عماد الدين زنكي ص ١٥٣.
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٥٣.
(٤) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٢.

أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل(١).

* ويبدو أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثاني - دون أن يدري - في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي (٢).

* وعلى أية حال: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م ومهما كان أن شأن عوامل (النحر والانتحار) الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه (٣).

٥ – موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية:

ورويا لعماد الدين بعد موته:

أ – موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها: كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه خطة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكون في أمره (٤): فقال فنزلت: السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم (٥) ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي: أصعد إلى المنارة، وأؤذن حتى يجري ما جرى، فصعدت وناديت: الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا على السور، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة (٦).

ب – ملك جزيرة صقلية: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على من

(١) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٣.
(٣) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٣.
(٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ٢٢.
(٥) المصدر نفسه نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.
(٦) بغية الطلب في تاريخ حلب (٣٨٥١/٩) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٢٢.

عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سير هذا ملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي، وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها - أي أتباع رسول الله ρ - فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيُر قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلَّو منزلة الرّها عند النَّصرانية [١].

ج – رويا للشهيد بعد قتله: ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها [٢].

س – مؤامرة فاشلة من سكان الرها: ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا - في العام التالي - مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين [٣].

٦ – نتائج فتح الرها:

حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ - تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافاً بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود - وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب - تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤١/١).
(٢) المصدر نفسه (١٤١/١).
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.

وكذلك بلاد فارس[١].

ج - زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى إيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي - باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام ١١٢٤م/٥١٨هـ/ بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائماً في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت - على المستوى الجغرافي - معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د - أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الإستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأمم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام صليبية ١١٤٧ - ٥٤٢/١١٤٩هـ - ٥٤٤هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين - عامة - في عهد الحروب الصليبية.

هـ - ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، ارتفاع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة [٢]، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام [٣] وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح

(١) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٤، ١٦٥.
(٢) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٥.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٥٦.

الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدَّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين [١] وهذا إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

٧ – رأى المستشرق جون لامونت في عماد الدين:

يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها: الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس وفي هذه الدراسة؛ اتجه لامونت إلى تفنيد فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية فقط وذكر بأن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرها مُنذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وإلا بعد حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بين له سهولة احتلال المدينة [٢]، ويستمر في تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين [٣] وذكر أيضاً: أن استيلاء زنكي على حماة وحمص، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى ذلك مصلحته[٤]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

* كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً لو لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل إنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين مُنذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي، بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها - على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية، يعتبر بحق من

(١) المصدر نفسه ص ١٥٦.
(٢) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٦.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٦.

أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية يبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيداً عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه[١]، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسخ في ذهنه مُنذ زمن بعيد والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة [٢].

* إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في آتون جبهتين: جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية وجبهة الصراع مع الصليبيين ثم إنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها [٣].

* أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان يسعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي - كما أشرت من قبل - يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد [٤].

* من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك ثأراً ملازماً لذلك القطاع منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر

(١) الباهر ص ١٧ الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٧.
(٢) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٧.
(٤) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب ص ١٦٨.

والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير - بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام - أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام، حيث أن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية [١]، إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً ومن أشهر الكتب المعاصرة، كتاب الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم قالت صاحبة الكتاب كارين ارمسترونغ عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره [٢]، وسيرة الرجل تكذب ما يقولون ووصفه مؤرخونا بالشهيد وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهلاً لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته: من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً للأمور وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف [٣]، وكان معظماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته وقد كلف بذلك القضاة، إن من أهداف بعض المستشرقين:

* تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.

* إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.

* محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.

* كانت كتابتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي ولذلك حاول المستشرقون تشويه صورة عماد الدين زنكي.

* إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

٨ – مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرها:

إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً

(١) المصدر نفسه ص ١٦٨.
(٢) الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ص ٢٤٥.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٥٧/١).

وأتراكاً - يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام - مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم [١] وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفُرسان حتى ::: ظننت البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ::: تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ::: وغُرَّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ::: قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً ::: وهيبته جناحاً للجناح [٢]

أ – القيسراني يمدح عماد الدين في فتح الرها: قال الشاعر:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ::: وهل طوّق الأملاك إلا نجاده

ولقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظّبى ::: سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ::: ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمها ::: عن الله ما لا يُستطاعُ ذيادة
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ::: رواسيه عزًّا واطمأنَّ مهادة
وفتحٌ حديثٌ في السماعِ حديثه ::: سهيٌّ إلى يومِ المَعَادِ مُعَاُده
أراح قلوباً طِرْنَ من وُكُناتِها ::: عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّها دلالة ::: على غير ما عند العُلُوجِ اعتقاده
يُرَجُّون ميلاد ابن مريم نصرة ::: ولم يُعْنِ عند القوم عنهم ولاده
مدينة إفك منُذ خمسين حِجَّة ::: يفِلُّ حديد الهند عنها حداده
تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها ::: ترقت إليه خان طرْفاً سواده
وجامحةٌ عزَّ الملوكَ قِيادُها ::: إلى أن ثناها من يعزُّ قياده
فأوسعها حرَّ القِراع مُؤيَدٌ ::: بصيرٌ بتمرين الألدَّ لِدَادهٌ

(١) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٠.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٣٩/١).

كـــأنَّ ســـنا لَمْـــعِ الأســـنَّةِ حولـــه ::: شـــرارُ ولكـــن فـــي يديـــه زنـــاده
فأضـــرمها نـــارين: حربـــاً وخدعـــة ::: فمـــا راع إلا ســـورُها وانهـــدادُهُ
فصـدَّت صُـدُودَ البِكْـر عنـد افتضاضـها ::: وهيهـات كـان السـيف حتمـاً سـفاده[1]
فيـا ظَفَـراً عـمّ الـبلاد صـلاحه ::: بمـن كـان قـد عـمَّ الـبلادَ فسـاده
فـلا مُطْلَـقٌ إلا وشُـدّ وثاقـه ::: ولا مُوثَـقٌ إلا وحُـلَّ صِـفاده
ولا مِنبـرٌ إلا تـرنّح عُـوْده ::: ولا مصـحف إلا أنـار مـداده
فـإن يثكـل الإبرنـز فيهـا حياتـه ::: وإلا فقـل للـنجم كيـف سُـهادُهُ
وباتـت سـرايا القمـص نقمـص دونهـا ::: كمـا يتنـزّى عـن حريـق جـراده
إلـى أيـن يـا أسـرى الضَّـلالة بعـدها ::: لقـد ذَلَّ غـاويكم وعَـزَّ رشـاده
رُوَيْـدكُمُ لا مـانع مـن مُظَفَّـر ::: يعانِـدُ أسـباب القضـاء عِنـادُهُ
مُصـيبُ سـهام الـرأي لـو أن عَزْمَـهُ ::: رمـى سَـدَّ ذي القـرنين أصـمى سَـدادُهُ
وقـل لملـوك الكُفـر سُـلمُ بعـدها ::: ممالكهـا إن الـبلاد بـلاده
كـذا عـن طريـق الصُّـبح أيتهـا الـدُّجى ::: فيـا طالمـاً غـال الظـلام امتـدادُهُ
ومـن كـان أمـلاك السَّـمواتِ جنـده ::: فأيـة أرض لـم ترضـها جيـاده
ولله عـزم مـاءُ سـيحان ورده ::: وروضـة قسـطنطينة مسـتراده [2]

ولـه قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرُزُوْري أَوّلُها: هي جنة المأوى فهل من خاطب. يقول فيها: ؟

إن الصَّـفائح يـوم صـافحت الرُّهـا ::: عطفـت عليهـا كـل أشـوس ناكـب
فـتح الفتـوح مبشَّـراً بتمامـه ::: كـالفجر فـي صـدر النَّهـار الآيـبِ
لله أيّـة وقفـة بدريـة ::: نُصـرت صـحابتها بـأيمن صـاحب
ظفـرٌ كمـال الـدين كنـت لقاحَـه ::: كـم نـاهض بـالحرب غيـر محـارب
وأمـدكم جـيشُ الملائـك نصـرةً ::: بكتائـب محفوفـة بكتائـب
جنبـوا الـدَّبور وقـد تـم ريـح الصـبا ::: جنـدُ النبـوة هـل لهـا مـن غالـب
أتـرى الرُّهـا (الورهـاء) [3] يـوم تمنعـت ::: ظنـت وجـوب السـورِ سـورة لاعـب
لا أيـن يـا أسـرى المهالـك بعـدها ::: ضـاق الفضـاء علـى نجـاة الهـارب
شـدَّا إلـى أرض الفرنجـة بعـدها ::: إن الـدُّرُوبَ علـى الطريـق اللأَحـب
أفغَـرّكم والثّـأرُ رهـنُ دمـائكم ::: مـا كـان مـن إطـراق لحـظ الطَّالـب
وإذا رأيـت الليـث يجمـع نفسـه ::: دون الفريسـة فهـو عـينُ الواثـب [4]

ب – ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرها: ؟؟؟

صـفاتُ مجِـدكَ لفـظ جـلَّ معنـا ::: فـلا اسـتردَّ الـذي أعطاكـه الله
يـا صـارماً بيمـين قائمُـةُ ::: فـي أعـالي أعـادي اللَّـهِ حَـدَّاه
أصـبحت دون ملـوك الأرض منفـرداً ::: بـلا شـبيهٍ إذ الأمـلاكُ أشـباه

(١) في رواية: نفاده.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤٣/١).
(٣) الورها: الخرقاء.
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤٤/١).

فداك من حاولت مسعاك هِمتُهُ ::: جهلاً وقصَّرَ عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي ألا موتوا به عمداً ::: فالله خيَّبكم والله أعطاه
مَلْكٌ تنام عن الفحشاء هِمتَّهُ ::: تقى وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يَسْمُكُ والأيام تخدمه ::: فيما ابتلاه وتُدْني ما توخّاه
حتى تعالت عن الشَّعْرى مشاعره ::: قدراً وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس عن فتح أُتيح له ::: مظَّلٌ أفف الّدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج ::: مقطوبة بفتيق المِسْك ريّاه
فتحٌ أعاد على الإسلام بهَجَتهُ ::: فافترَّ مبسُمه واهتزّ عِطْفَاه
يُهْدَى بمعتصم بالله فتكته ::: حَديثها نَسَخ الماضي وأنساه
إن الرُّها غير عمُّورية وكذا ::: مَنْ رامها ليس مَغْزَا، كمغزاه
أخت الكواكب عِزًّا ما بغى أحدٌ ::: من الملوك لها وَقْماً [1] فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ::: رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجْم مسراه
مشمَّراً وبنو الإسلام في شُغُلٍ ::: عن بَدْءِ غرْس لهم أثمار عقباه
يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادبُهَ [2] ::: وعامر الجُودِ لما محَّ معناه
يا نعمة الله يستضفي المزيد بها ::: للشاكرين ويستقني صفاياه
أبقاك للدِّين والدُّنيا تحوطُهما ::: من لم يُتوَّجْك هذا التَّاج إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيا ملِكاً ألقى على الشَّرك كلكلاً ::: أناخ على أماته [3] كَلْكَلُ الّشكل
جمعت إلى فتح الرُّها سدّ بابه ::: بجمعك بين النَّهْب والأَسْر والقتل
هو الفتحُ أنس كلَّ فتح حديثه ::: وتوَّجَ مسطورَ الرَّواية والنَّقْلِ
فضضت به نقشَ الخواتمِ بعده ::: جُزيتَ جزاءَ الصدق عن خاتم الرسلِ
تجردت للإسلام دون ملوكه ::: تبُتَّكُ أسباب المذلَّةِ والخذل
أخو الحرب غَدَّتْهُ القراع مفطَّماً ::: يشوب بإقدام الفتى حُنْكَة الكهل

وقال أيضاً: ؟؟؟

بعماد الدين أضحت عروة الدين ::: معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدَّولة ::: القسم في إدحاض كيد المارقين
ملك أسهر عيناً لم يزل ::: همُّها تشديد هَمَّ الزَّاقدين
لاخَلْت من كَحَل النَّصْر فقد ::: فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كلَّ يوم مرّ من أيامه ::: فهو عيٌد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه ::: كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الرَّاوون بل ما سطَّروا ::: مثل ما خَطَّتْ له أيدي السنين
إذ أناخ الشرك في أكنافه ::: بمئي ألفٍ تلاها بمئين

(١) وقماً: أي ذلاً.
(٢) محّ: خلق ودرس.
(٣) أماته: مفردها أم والجمع أمات أو أمهات.

وقعة طاحت بكلب الروم من ::: قطعه التِّين إلى قطع الوَتينْ [٣]
إن حمت مصر فقد قام لها ::: واضح البرهان أن الصَّين صينْ
والرُّها لو لم تكن إلا الرُّها ::: لَكَفَتْ حسماً لشك المُمترين
درج الدّهر عليها مُعصِراً ::: لم تدنس بمرام الاّ مسين
هَمَّ قسطنطين أن يَفْرَعَهَا ::: ومضى لم يَحوِ منها قِسْطَ طين
ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها ::: فتحلَّى الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلا أنّها ::: منه كالنجم لرأي المبصرين
مُنِيَتْ منه بليث قائدٍ ::: بِعران [٤] الذُّلَّ أساد العرين
زارها يزأرُ في أسد وغًى ::: تبدل الأسد في الزأر الأنين
صولجوا البيضَ [١] بضرب نثر ::: الهام في ساحاتها نثر الكُرِيْن [٥]
يا لها همّةُ ثَغْرٍ أضحكت ::: من بني القُلْفِ [٦] ثغور الشَّامتين
بَرْنَسَتْ رأسَ برنسٍ ذِلةً ::: بعدما جاست حوايا جوسلين
وسروج مُذْ وعت أسراجه ::: فَرَّقَتْ جُمَّاعها عنها عِضين
تلك أقفال رماها الله من ::: عزمه الماضي بخير الفاتحين
شامَ منه الشُّامُ برقاً ودْقُه [٢] ::: مؤمنُ الخوف مخيفُ الآمنين
كم كنيس كُنِست آرامها ::: منه بعد الروح في ظل السَّفين

إلى أن قال:

همة تمسي وتضحي عزمةٌ ::: ليس حصن إن نحته بحصين
قل لقوم غرّهم إمهاله ::: ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من ::: فر منه فشجا للغافلين
وهو يُحيي مُمسكي عُروته ::: إنها حبل لمن تاب متين
من يطع ينج ومن يعص يكن ::: من غداةٍ عبرةٌ للآخرين
أقسم الجد بأن تبقى لكي ::: تملك الأرض يميناً لا يمينْ [٧]
وتفيض العدل في أقطارها ::: منسياً مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارُك كيف انتقلت ::: كعبة محفوفة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيدُها ::: من نظيم المدح بالدُّرَّ الثمين
كلما أُخلص فيها دعوةٌ ::: لك قالت ألسْنُ الخلْقِ آمين [٨]

ثامناً: الأحداث العسكرية بعد فتح الرها:

كان فتح الرها بداية لما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته

(١) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.
(٢) ودقة: مطرة.
(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٤) العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.
(٥) مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان.
(٦) القُلْف: أي الذين لم يختنوا ويعني الصليبيين.
(٧) لا يمين: لا يكذب.
(٨) كتاب الروضتين (١٤٩/١).

بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة[١]، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى [٢]، وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلّم إليه في الحال [٣]، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها: إلا أن صليبي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات [٤]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز [٥]، واستطاع نور الدين محمود - فيما بعد - اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود [٦].

تاسعاً: من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه - بالتالي - من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق والجزيرة وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والانسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، أولها إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيها إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه - هذه الحروب - من قتل وأسر ونهب وتخريب، وثالث تلك النتائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين [٧]، وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان إيتكين، ولجة التركي واليازوق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٥٦.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ عماد الدين زنكي ص ١٥٦.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٤) مفرج الكروب (٩٦/١) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٧) عماد الدين زنكي ص ١٥٨.

المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتيين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون - بفضلها - خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم، ففي رجب من عام ٥٢٤هـ على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية وعاشت في بلاد جوسلين أمير الرها [١] وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيله ثم ما لبث، بعد عام واحد ٥٢٦هـ أن أوقع بصليبي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثيراً [٢] ولم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام ٥٢٧هـ عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، إثر قيام بلدوين بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً [٣]، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى [٤] وفي جمادي الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب [٥]. وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سرياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب: فسر الناس بذلك بعد مساءتهم. ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبيراً منهم، بينما وقع معظم

(١) مفرج الكروب (٤/١) عماد الدين زنكي ص ١٥٩.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٠.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ - ٢٤١ عماد الدين زنكي ص ١٦٠
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٦٠.
(٥) المصدر نفسه ص ١٦١.

الباقين في الأسر [١]، ثم ما لبث سوار أن قام - في نفس العام - بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر [٢]، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب [٣]، وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام ٥٣٠هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون لـه أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبي الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها [٤] والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامي ٥٢٩هـ، ٥٣٠هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين [٥] الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبي الشمال وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب [٦]، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، أوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها [٧] وفي عام ٥٣٣هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده [٨] واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامي ٥٣٤ - ٥٣٥هـ. إثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد في عام ٥٣٦هـ والأعوام التي تلته، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم

(١) زبدة حلب (٢/٢٥٢).
(٢) الجزر: إحدى كور حلب معجم البلدان (٢/٧١).
(٣) زبدة حلب (٢/٢٥٤) عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥ - ٢٥٦) عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٥) الحروب الصليبية، العريني (١/٥١٠) عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٦٢ زبدة حلب (٢/٢٦٣).
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٦٢.
(٨) زبدة حلب (٢/٢٧١) عماد الدين زنكي ص ١٦٢.

عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب [١] وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل [٢]، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين [٣]، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج - في العام التالي - للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. وتمكن جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها [٤]، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية وفي جمادى الأولى من عام ٥٣٨هـ - تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة [٥] وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب [٦].

عاشراً: حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الدين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية كإمارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية - مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي (محمود بن محمد بن ملكشاه) عام ٥٢٢هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم

(١) زبدة حلب (٢٧٥/٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٢.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٣ زبدة حلب (٢٧٥/٢).
(٣) زبدة (٢٧٦/٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٣.
(٤) عماد الدين زنكي.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٨ زبدة حلب (٢٧٧/٢ - ٢٧٨).
(٦) زبدة حلب (٢٧٨/٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٣.

على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لابد لزنكي إذن من إخضاع هذا العدد الكبير، من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، مُنذ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار أولها: احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء العادين وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقة.

وثاني تلك الأخطار: عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين مُنُذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف [١]، لكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف - مُنذ البدء - أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولإستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، انحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه وفي نفس الوقت عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لاسيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل [٢]. ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن إتونتكين ٥٠٢ - ٥٠٧هـ وإيلغازي وبلك الأرتقيين ٥١٢ - ٥١٨هـ وآق سنقر البرسقي ٥١٨ - ٥٢٠هـ[٣] ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل - وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين - لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة

(١) عماد الدين زنكي ص ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٦٦.

للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق [١].

الحادي عشر: الأيام الأخيرة من حياة عماد الدين زنكي:

١ – تهنئة عماد الدين بالشفاء من مرض عرض له:

في عام ٥٤٠هـ أنشد ابن منير بالرقة في عماد الدين زنكي قصيدة، يهنّئه بالعافية من مرض عرض لـه في يده ورجله قال فيها: ؟؟

(١) المصدر نفسه ص ١٦٦.

يـــا بـــدرُ لا أَفْـــلٌ ولا مُحَـــاقُ [١] ::: ولا يَـــرِم [٤] مشـــرقك الإشـــراق
بالـدَّين والـدُّنيا الـذي تشـكو هـول ::: يهتـز فـرعٌ لـم يُقمـه سـاق
لـن تُـورِق القُضْـب ويجـري ماؤهـا ::: فيهـا إذا التاثـت الأعـراق
إن الرّعايـا مـا سـلمت فـي حمًـى ::: للخطـب عـن طُرُوقـه إطـراق
غرسـت بالعـدل لهـم خمـائلاً ::: ترتـع فـي حـديقها الحِـداقُ
يـا هضـبة الـدين التـي عـاذ بهـا ::: فعـاد لا بغـت ولا إرهـاق
لـو لـم تَحُطـه راحـلاً وقـافلاً ::: أصـبح لا شـام ولا عِـراق
عمـاد الـدين مُـذْ أقـام زيغَـهُ ::: حـيَّ ومـات الشَّـركُ والنفـاق
يـا محيـي العـدْل الـذي فـي ظلَّـة ::: تسـربَلَتْ زينتَهـا الآفـاق
يَفـديك مـن لان مِهـادٌ جنبـه ::: لمَّـا نبـا بجنبـك الإقـلاقُ
مـن بِشَـبَا سـيفك [٢] أنبطـت [٣] لـه ::: العـذْب ومـاء عيشـه زُعـاقُ [٥]
تجـرَّع السَّـمَّ ولـو لـم تحمـه ::: بحـدِّه لعـزه الـدَّرياق [٦]
ملـوك أطـراف حمـى أطرافهـا ::: عزمـك هـذا اللاّحـق السَّـبَّاقُ
لـو لـم تـرق مـاءَ كـرى العـين لمـا ::: سـاغت بـأفواههم الأريـاق [٧]
شـققتَ مـن دونهـم مـوج الـرّدى ::: وشـقَّ أكبـادَهُمُ الشـقاق
أقسـم لـو كلَّفـتهم أن يسـمعوا ::: حـديث أيامـك مـا أطـاقوا
لمّـا اشـتكيت دبَّ فـي أهـوائهم ::: تـوجّسٌ للسَّـمع واسـتِراق
تطـاولوا لا عـدمت آمـالهُم ::: قصـراً ولا جانبهـا الإخفـاق
توَّهمُوهـا غَسَـقاً ثـم انجلـت ::: والصَّـفُو مـن مشـربهم غَسَّـاق [٨]
لـئن ألـمَّ ألـمٌ بقـدمٍ ::: خَـدُّ السُّـها [٩] لنعلهـا طـراق
أو كـان مـدَّ يَـدَهُ إلـى يـدٍ ::: تجـري بهـا الآجـال والأرزاق
فالنَّصْـل يُعْلَـى صَـدَأً وتحتـه ::: حـدُّ حسـام وسـنا رقـراق
رمـى الصَّـليبَ بصـليب الـرَّأي عـن ::: زوراء أوْفـى [١٠] نزعهـا الإغـراق
ونـوم مَـنْ خلـف الخليـج سَـهَرٌ ::: والعـيش فـي فرنجـةٍ سـياق [١١]
مـاتوا فـلا همـسٌ ولا إشـارة ::: خـوف همـوس زأره إزهـاق
لا سَـلَبَتْ منـك اللَّيـالي مـا كسـت ::: ولا عَـرَا [١٢] جـدَّتَك الإخـلاق [١]

(١) لا أفق ولا مجال وهو وهم.
(٢) أي بحد سيفك.
(٣) أنبطت: أي استخرجت.
(٤) لا يَرِم: يبرح.
(٥) ماء زعاق: مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته.
(٦) الدَّرياق: لغة في الترياق فارسي معرب وهو يستعمل لدفع السم.
(٧) الأرياق: مفردها ريق وهو اللعب.
(٨) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم.
(٩) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.
(١٠) في النسخ الخطية: أوهى.
(١١) السياق: نزع الروح عند الموت.
(١٢) في الأصل: عرق.

٢ – مقتله: ٥٤١هـ:

تجمع المصادر على أن زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الآخر عام ٥٤١هـ خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقض عليه - وهو نائم - غلام أو عدة غلمان من مماليكه المقربين الذين كانوا يقومون على حراسته أثناء نومه، وإنهم هربوا - بعد قتله - إلى القلعة ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر ففتحوا لهم الأبواب، وأنه ما إن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وسادته الفوضى، فلم ير قادته بداً من فك الحصار والرحيل [٢] قال ابن الأثير:.. ختم الله بالشهادة في أعماله.

لاقى الحِمام ولم أكن مُستَيقناً ::: أنَّ الحِمام سُيْتَلَى بحِمامِ

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخّلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للإسلام أفل، وأي ناصر للإيمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غرب، وأي أسد افترس ولم يُنْجِه قُلَّة [٣] حصن ولا صهوة فرس فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته وكم أدّبها [٤] في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم، ومقسيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً، رهين جَدَثٍ لا ينفعه إلا ما قدَّم قد طويت صحيفة عمله فهو موثوق في صورة مستسلم [٥]. وقد اختلفت المصادر في تفاصيل عملية القتل وهوية القاتل وسبب القتل، فمن حيث تفاصيل عملية القتل يشير العماد الأصفهاني إلى أن عماد الدين زنكي إذا نام ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه ويزورونه زور الخيال في أحلامه وهو يحبّهم أعمق الحب.. ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه واستبقى ولده وخصاه... فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص فنام تلك الليلة وحوله مماليكه، فانتبه وهم قد شرعوا في اللعب، وأخذوا في الطرب فزجرهم وتوعدهم وهم ساكتون، لكن كبيرهم المدعو (يرنقش) أسرّ ذلك في نفسه، وراح ينتظر الفرصة للأخذ بثأره وما إن عاد سيده إلى النوم ثانية حتى أسرع إليه، وبرك عليه، وذبحه، واستطاع - إثر ذلك - أن يتسلل من المعسكر إلى أسوار جعبر، دون أن يشك أحد فيه باعتباره كبير حراس زنكي وهناك أخبر أهل القلعة وحراسها بما أقدم عليه، وأراهم الأدلة والعلامات [٦]، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة وبين صفوف قواته كي يشيعوا الاضطراب فيها ويجبروها على الانسحاب وقد نجحوا في ذلك [٧]، ويتفق كل من ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي مع العماد الأصفهاني في هذه الرواية مع اختصار وحذف

(١) كتاب أخبار الروضتين في أخبار الدولتين (١٥٣/١).
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ عماد الدين زنكي ص ١٨٣.
(٣) القلة: أعلى الجبلة، وقلة كل شيء أعلاه.
(٤) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (١٥٤/١).
(٥) المصدر نفسه (١٥٥/١).
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٨٣ تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٠.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٦٠.

بعض التفاصيل [١] وأما ابن العديم فإنه يذكر أن زنكي تهدد يرنقش خلال النهار، فخاف الأخير منه وأسرع باغتياله ليلاً[٢]. وأما من حيث هوية القاتل فيشير كل من ابن القلانسي ورنسيمان وأليسييف إلى أن القاتل كان من أصل إفرنجي أما حسن حبشي فيقول: ولعل القاتل كان باطنياً [٣]، ومن حيث سبب القتل فيبدو أن صاحب قلعة جَعْبَر هو الذي حرّض على قتله كي يتخلص من الحصار، وأنه كان على صلة بالقاتل بدليل ما أورده ابن العديم من أن حساناً البعلبكي، صاحب منبج، تقدم إلى أسوار القلعة ونادى على ابن مالك وقال له: يا أمير علي، أيش بقى يخلصك من أتابك؟ فقال له: يا عاقل، يخلصني الذي خلَّصك من حبس بلك، يعني حين قُتل بلك على منبج وخلص حسان، يضاف إلى ذلك أن يرنقش التجأ إلى القلعة بعد حادثة الاغتيال [٤] والراجح أن يرنقش نفَّذ عملية الاغتيال مدفوعاً بثلاثة عوامل: شخصية ونفسية وسياسية [٥].

أما العامل الشخصي: فيتمثَّل بتهديد عماد الدين زنكي له وخشيته عاقبة هذا التهديد، فأسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه ويتجلى تأثير العامل النفسي في انزعاج يرنقش من معاملة عماد الدين زنكي القاسية له وزجره إياه ثم شعوره العميق بما أصابه من ظلم [٦] ولعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته وذبح سيده، ويصور الأصفهاني حركات يرنقش أثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز أثر الانفعال النفسي فيها: فأسرع إلى زنكي، وبرك عليه وذبحه في نومه [٧] **وأما الدافع السياسي للاغتيال فيقوم على وجهين، أولهما**: اتفاق يرنقش - سراً - مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وإنهاء أزمتهم، بعد أن كاد حصنهم يوشك على الاستسلام، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية، وربما تسلل إلى خدمة زنكي مُنذ زمن بعيد، لتحقيق هدفه هذا، كعادة الباطنية في التستر والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم لكبار الشخصيات السياسية السنية التي كانت تشكل خطراً على دعوتهم، خاصة إذا ما عرفنا العطف الذي كان يبديه أمراء جعبر تجاه الباطنية. **أما ثاني** الاحتمالات السياسية فكون يرنقش ذا أصل (إفرنجي). كما أكّد ابن القلانسي وابن واصل ورنسمان، ويحتمل أن يكون قد أقدم على فعلته إما باتفاق سري مع الصليبيين أو بدافع شخصي مرتجل يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي بدأ زنكي يوجه إليها ضربات حاسمة ولا نستطيع الجزم بأى من هذه الدوافع الثلاث لاغتيال زنكي، ذلك أن المصادر كما رأينا - لم تعط القول الفصل في هذا المجال، ومن الخطأ الاعتقاد بأن يرنقش ذا الأصل الفرنجي اغتال سيده - وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والإسلامية - بدافع شخصي أو نفسي محض، ولا ريب أن وراء هذا الاغتيال الخطير، في هذه المرحلة الصعبة، دوافع سياسية أبعد مدى وأشد خطورة، ربما تعود

(١) المصدر نفسه ص ١٦٠.
(٢) زبدة حلب (٢/٢٨١ - ٢٨٢) عماد الدين زنكي ص ١٨٤.
(٣) نور الدين والصليبيون ص ٤٠ تاريخ الزنكيين ص ١٨٤.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦٠.
(٥) المصدر نفسه ص ١٦٠ عماد الدين زنكي ص ١٨٤.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦١.
(٧) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩ - ١٩٠ عماد الدين زنكي ص ١٨٥.

إلى الأصل الفرنجي للقاتل، أو إلى ميوله الباطنية، وربما تعود إلى اتفاقه سراً مع أمراء قلعة جعبر لقاء ما منّوه به، إذا أتم تخليصهم من عماد الدين زنكي الذي غدا قاب قوسين أو أدنى من اجتياح حصنهم واتجه القاتل، بعد أن اغتال زنكي، إلى أسوار قلعة جعبر بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس: شيلوني فقد قتلت زنكي فلم يصدقوه، فأراهم السكين، وعلامة أخرى، كان قد أخذها من سيده وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة وتحققوا صدق ما كان يقول [١]، وعندما بشر صاحب جعبر بالنبأ لم يصدقه أول الأمر وآوى يرنقش إلى القلعة وأكرمه، وعرف حقيقة الأمر، فسر بذلك واستبشر بما أتاه من الفرج بعد الشدة الشديدة [٢]، ويشير ابن العديم إلى رد الفعل الذي أحدثه القاتل في أهل القلعة، فعندما ناداهم: إني قتلت زنكي، أجابوه: اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله [٣]، ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته إلا المطاردة والخوف، ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم، ولم يكافؤوه على عمله ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود زنكي، أمير حلب بالانتقام منهم لأبيه، وأخير تم إلقاء القبض على القاتل، وأرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك [٤] وعندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره انقسم إلى قسمين اتجه أحدهما إلى حلب بقيادة نور الدين محمود واتجه القسم الآخر إلى الموصل بقيادة جمال الدين الأصفهاني حيث قام هو وكبار الأمراء بتنصيب سيف الدين غازي أميراً على الموصل [٥] وحملت جثة زنكي إلى الرقة حيث دفنت في مشهد هناك في منطقة قبور شهداء صفين[٦].

٣ – ما قيل في مقتل عماد الدين زنكي من شعر:

اضطربت الأمور بعد مقتل عماد الدين واختلت المسالك بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في الإفساد في الأطراف والنواحي وقال أبو يعلى التميمي في صفة هذا الحال أبياتاً: ؟؟؟

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت	:::	سعادته عنه وخرَّت دعائمه
وكم بيت مال من نُضارٍ وجوهر	:::	وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كلَّ حصنٍ مصونةً	:::	يحامي عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كلُّ مُطهَّم	:::	يروع الأعادي حَليُه وبراجمه
فلو رامتِ الكُتّاب وصف شياتها	:::	بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه	:::	وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت ولاة الأرض فيها لأمره	:::	وقد أمَّنتهم كُتْبُه وخواتمه
وأمّن من في كل قطر بهيبة	:::	يُراع بها أعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يُذكر عدله	:::	فقد زال عنهم ظُلْمُه وخصائمه

(١) عماد الدين زنكي ص ١٨٦.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٨٦.
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٦.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٨٧.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٨٧.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٧.

وأصبح سلطان البلاد بسيفه ::: وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الأملاك بأسا وسطوة ::: ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله ::: وراعت وُلاةَ الأرضِ منه لوائمه
أتاه قضاء لا تُردُّ سهامه ::: فلم تُنْجِه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حِمامهُ ::: وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مُجدَّلا ::: صريعاً تولَّى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللُّهام [١] مبيته ::: ومن حوله أبطاله وصوارمُه
وسُمْرُ العوالي حوله بأكُفِّهم ::: تذود الرّدى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عُصبةٌ قد ترتَّبت ::: بأسهمها بُرْدى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سرِّه ::: وهمّتُه تعلو وتقوى شكائمه
وكم مَسْلكٍ أمّن سُبْلَه ::: ومسرح حَيَّ أن تراع سوائمه
وكم ثغرِ إسلام حماه بسيفه ::: من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله ::: وتنفذ في أقصى البلاد مراسِمُه
فلو رُقيت في كلَّ مصر بذكره ::: أراقمه ذلَّتْ هناك أراقِمُه [٢]
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهر سالماً ::: إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُه
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى ::: له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يحاومه
فإيَّاك لا تغبط مليكاً بملكه ::: ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه ::: رُويدك ما تبني فدهرك هادمه
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ ::: بها يتناسى المرء ما هو عازمه [٣]

وقال الحكيم أبو الحكم المغربي قصيدة في رثاء عماد الدين جاء فيها:

عيني لا تدخري الدموع وبَكِّي ::: واستلهِّي دماً على فقد زنكي
لم يَهَب شخصه الرَّدى بعد أن ::: كانت له هيبة على كل تُركي
خيرُ مَلْكٍ ذي هيبة وبهاء ::: وعظيم بين الأنام بُزُزكِ
يَهَبُ المال والجياد لمن ::: يمَّمَه مادحاً بغير تَلَكِّي
إنَّ داراً تمدُّنا بالرَّزايا ::: هي عندي أحقُّ دار بترك
فاسْكُبوا فوق قبره ماء وَرْدٍ ::: وانضحُوهُ بزعفران ومسك
أي فتكٍ جرى له في الأعادي ::: بعدما استفتح الرُّها أي فتكِ
كل خطب أتت به نُوَبُ ::: الدهر يسيرُ في جنب مصرع زنكي
بعدما كاد أن تدين له ::: الرُّوم ويحوي البلاد من غير [٤] شكَّ

٤ – فوائد متنوعة من البداية والنهاية في عهد إمارة عماد الدين زنكي:

١ – في سنة ٥٢٣هـ قال ابن كثير: في هذه السنة قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة آلاف، وعلَّق رأس كبيرهم على باب القلعة وأراح الله أهل الشام منهم وفيها حاصرت الفرنج مدينة دمشق

(١) اللُّهام: أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٦٥/١).
(٣) المصدر نفسه (١٦٦/١).
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٦٧/١).

فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً، وبعث أهل دمشق عبد الوهاب الواعظ ومعه جماعة من التجار إلى بغداد يستغيثون بالخليفة، وهموا بكسر منبر الجامع حتى وعدوا بأنهم سيكتبون إلى السلطان ليبعث جيشاً كثيفاً نصرة لأهل الشام فلم يبعث إليهم جيش حتى نصرهم الله من عنده، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً ولله الحمد والمنة وقتل بَيْمنَدُ الفرنجي صاحب أنطاكية [١].

٢ – وفي أحداث عام ٥٢٤هـ: فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق تهدمت بسببها دور كثيرة ببغداد، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجَّجُ، فاحترقت دُور كثيرة من ذلك وتهارب الناس وفيها وجد ببغداد عقارب طيّارة لها شوكتان، فخاف الناس منها خوفاً شديداً وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة، ومن بلاد الفرنج، وجرت له معهم حروب طويلة، وخطوب جليلة، ونُصر عليهم في تلك المواقف كُلها، ولله الحمد والمنة، وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا إلى الشام ومدحه الشعراء على ذلك [٢].

٣ – وفي عام ٥٢٤هـ توفي إبراهيم بن عثمان، أبو إسحاق الكَلْبيُّ من أهل غزّة، جاوز الثمانين، وله شعر جيد ومن شعره في الأتراك قوله:

في فتنة من جيوش التركِ ما تركت ::: للرَّعْدِ كَرَّاتُهُمْ صوتاً ولا صِيتا
قوم إذا قُوبلوا كانوا ملائكة ::: حُسناً وإن قُوتِلُوا كانوا عفاريتا [٣]

وله أيضاً:

إنمَّا هذه الحياةُ متاعٌ ::: والسَّفيهُ الغَوِيُّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّلُ غَيْبٌ ::: ولك الساعة التي أنت فيها [٤]

٤ – وفي سنة ٥٢٥هـ توفي أحمد بن محمد، أبو نصر الطوسي سمع الحديث وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي وكان شيخاً لطيفاً عليه نور قال ابن الجوزي أنشدني:

فإن نلت خيراً نِلْتهُ بعزيمة ::: وإن قصَّرَت عنك الخطوب فعن عُذرِ [٥]

قال: أنشدني أيضاً:

لِبستُ ثوب الرّجا والناس قدَ رقدُوا ::: وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلتُ يا عُدَّتي في كلَّ نائبة ::: ومن عليه لكشف الضُّرَّ أعتمدُ
وقد مددت يدي والضُّرُّ مُشتملٌ ::: إليك يا خير من مُدَّت إليه يُد
فلا تَرُدَّنَّهَا يا رَبَّ خائبة ::: فبحرُ جُودِك يرْوِى كل من يَرد [٦]

٥ – وفي سنة ٥٢٧هـ اقتتل الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله منهم خلقاً كثيراً وغزاهم فيها

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٦٧/١).
(٢) البداية والنهاية (٢٨٤/١٦).
(٣) المصدر نفسه (٢٨٥/١٦).
(٤) المصدر نفسه (٢٨٦/١٦).
(٥) المصدر نفسه (٢٨٩/١٦).
(٦) البداية والنهاية (٢٨٩/١٦).

أيضاً عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل وغنم أموالاً جزيلة، ويقال لها: غزاة أسوار [١] وفي نفس السنة توفي محمد بن أحمد بن يحيى، أبو عبد الله العثماني الدّيباجي، وكان ببغداد يُعرف بالمقدسي وتفقه ووعظ الناس ببغداد قال ابن الجوزي: سمعته ينشد في مجلسه قوله:

دعْ جفوني يَحِقُّ لي أن أَنُوحَا ::: لم تَدَعْ لي الذنُوبُ قلباً صحيحاً
أخْلَقَتْ بهجتي أكف المعاصي ::: ونَعاني المشيب نعياً فصيحاً
كلما قُلتُ قد بَرا جُرحُ قلبي ::: عاد قلبي من الذنوب جَريحاً
إنما الفوز والنعيمُ لعبد ::: جاء في الحشر آمناً مُستَرِيحا [٢]

٦ – وفي سن ٥٣٣هـ توفي علي بن أفلح الكاتب وقد خلع عليه المسترشد الخليفة العباسي ولقَّبه جمال الملك وأعطاه أربعة دور وكانت له دار إلى جانبهن فهدمهن كلَّهنَّ واتخذ مكانهن داراً هائلة طولها ستون ذراعاً في عرض أربعين، وأطلق له الخليفة أخشابا وآجرا وذهباً فبناها، وغرم عليه ابن أفلح مالا جزيلاً، وكتب على أبوابها وطرازاتها أشعار حسنة من نظمه ونظم غيره فكان على الطُّرُزِ مكتوب[٣]:

ومن المروءة للفتى ::: ما عاش دار فاخرة
فاقنع من الدنيا بها ::: واعمل لدار الآخرة
هاتيك وافية بما ::: وعدت وهذي ساحرة [٤]

وفي موضع آخر مكتوب:

ونادٍ كأنَّ جنَانَ الخلود ::: أعادته من حُسْنِها رَوْنَقَا
وأعطته من حادثات الزمان ::: أن لا تُلِمَّ به مَوْتِقا
فأضحى يتيه على كلِّ ما ::: بُني مغْرِباً كان أو مَشرقاً
تظلُّ الوفود به عُكَّفاً ::: وتُمسي الضيوف به طُرَّقاً
بقيتَ له يا جمال الملوك ::: والفضل مهما أردت البقا
وسالمه فيك ريب الزمان ::: ووُقيَّت منه الذي يُتَّقَى

فما صدقت هذه الأماني، بل عمّا قريب - بعد نيلها - اتَّهم الخليفة ابن أفلح بأنه يكاتب دُبَيساً، فأمر بتخريب هذه الدار، فلم يبق فيها جدار، وصارت خرابة بعدما كان قد حَسُن منها المقام والقرار، وهذه حكمة من يقلِّبُ الليل والنهار وتجري بمشيئته الأقدار [٥].

٧ – وفي سنة ٥٣٥هـ توفي محمد بن عبد الباقي بن محمد بن كعب بن مالك الأنصاري وكان مشاركاً في علوم كثيرة وقد أُسر في صغره في أيدي الروم، فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلَّم منهم خط الروم، وكان يقول: من خدم المحابر خدمته المنابر ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي عنه وسمعه عنه قوله:

---

(١) البداية والنهاية (٢٨٩/١٦).
(٢) المصدر نفسه (٢٩٨/١٦).
(٣) المصدر نفسه (٣٢٣/١٦).
(٤) البداية والنهاية (٣٢٣/١٦).
(٥) المصدر نفسه (٣٢٤/١٦).

احفـــظْ لســـانك لا تَـــبُحْ بثلاثـــة ::: سِـــنٍّ ومـــال مـــا اســـتطعت ومـــذهب
فعلـــى الثلاثـــة تُبْتَلَـــى بثلاثـــة ::: بمُكفِّـــرٍ وبحاســـد ومُكـــذَّب

ومن ذلك قولـه:

لـــي مُـــدَّة لابُـــدَّ أبلغهـــا ::: فـــإذا انقضـــت وتصـــرّمت مِـــتُّ
لـــو عانَـــدَتني الأسُـــدُ ضـــارياً ::: مـــا ضـــرَّني مـــالم يَجـــي الوقـــت [١]

ومن ذلك قولـه:

بغـــدادُ دارٌ لأهـــل العلـــم طيبـــةٌ ::: وللفـــاليس دار الضَّـــنْك والضَّـــيق
ظللـــت حيـــران أمشـــي فـــي أزقتهـــا ::: كـــأنني مصـــحفٌ فـــي بيـــت زنـــديق [٢]

قال ابن الجوزي: بلغ من العُمر ثلاثاً وتسعين سنة لم تتَغيَّر حواسه ولا عقله وكانت وفاته ثاني رجب من هذه السنة وحضر جنازته الأعيان والناس ودفن قريباً من قبر بشر [٣].

* * *

(١) البداية والنهاية (٣٢٩/١٦).
(٢) المصدر نفسه ص (٣٣٠/١٦).
(٣) المصدر نفسه (٣٣٠/١٦).